كل كلمة صدرت عن سيد الخلق مبدأ يحتذى وكل تصرف له دين يتبع

أسلوب المفاوضات طريقة جديدة لإيقاف دعوة الإسلام

■ جواب رسول الله كان حاسماً واختار آيات دلت على حكمته في التفاوض

■ استمع الصحابة لما حدث بين النبي وعتبة بن ربيعة فكان درسًا تربويًا تعلموا منه الثبات

اجتمع المشركون يومًا، فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر، والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه، وليتظر ماذا يردُ عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحدًا غير عتبة بن ربيعة، فقالوا: أنت يا أبا الوليد، فأتاه عتبة فقال: يا محمد أنت خير أم عبدالمطلب؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم،قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم، فتكلم حتى نسمع قولك، انا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك، فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب حتى لقد طار فيهم: إن في قريش ساحرًا، وأن في قريش كاهنًا، والله ما ننتظر الا مثل صيحة الحبلى، أن يقوم بعضنا الى بعض بالسيوف حتى نتفانى.

أيها الرجل: ان كان انما بك الحاجة، جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أغنى قريش رجلا، وان كان انما بك – الباه – فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشرًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «فرغت؟»، قال: نعم، فقال رسول الله: «حم تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» الى أن بلغ «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ»، فقال عتبة: حسبك، ما عندك غير هذا؟ قال: «لا» فرجع الى قريش فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئًا أرى أنكم تكلمونه الا كلمته، قالوا: فهل أجابك؟ فقال: نعم وفي رواية ابن اسحاق: فلما جلس اليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي اني قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوا، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وان يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم.

دروس وعبر وفوائد

لم يدخل الرسول صلى الله عليه وسلم في معركة جانبية حول الفضليته على أبيه وجده أو افضليتهما عليه، ولو فعل ذلك لقضي الأمر دون أن يسمع عتبة شيئا.

لم يخض صلى الله عليه وسلم معركة جانبية حول العروض المغرية، وغضبه الشخصي لهذا الاتهام، انما ترك ذلك كله لهدف أبعد، وترك عقبة يعرض كل ما عنده، وبلغ من أدبه صلى الله عليه وسلم ان قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟» فقال: نعم.

كان جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم حاسمًا، ان اختياره لهذه الآيات لدليل على حكمته، وقد تناولت الآيات الكريمة قضايا رئيسية منها: ان هذا القرآن تنزيل من الله، بيان موقف الكافرين واعراضهم، بيان مهمة الرسول، وأنه بشر، بيان أن الخالق واحد هو الله، وأنه خالق السماوات والأرض، بيان تكذيب الأمم السابقة وما أصابها، وانذار قريش صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود.

خطورة المال، والجاه، والنساء على الدعاة، فكم سقط من الدعاة على الطريق تحت بريق المال، وكم عرضت الآلاف من الأموال على الدعاة ليكفوا عن دعوتهم، والذين ثبتوا أمام اغراء المال هم المقتدون بالنبي صلى الله عليه وسلم، وخطورة الجاه واضحة؛ لأن الشيطان في هذا المجال يزين ويغوي بطرق أكبر وأمكر وأفجر، والداعية الرباني هو الذي يتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم في حركته وأقواله وأفعاله، ولا ينسى الهدف الذي عاش له ويموت من أجله: «قل إنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ» [الأنعام: 162.163]، وأما النساء فقد قال صلى الله عليه وسلم: «ما تركت فتنة على أمتي أضر على الرجال من النساء» سواء كانت زوجة تثبط الهمة عن الدعوة والجهاد، أو تسليط بعض الفاجرات عليه ليسقطنه في شباكهن، أو في تهيئة أجواء البغي والاثم والمجون ليرتادها خطوة بعد خطوة، أيًا كانت، فانها فتنة عظيمة في الدين، فها هي قريش تعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءها، يختار عشرًا منهن، أجملهن وأحسنهن يكن زوجات له، ان كان عاجزًا عن الزواج من أكثر من واحدة، ان خطر المرأة حين لا تستقيم على منهج الله، أشد من خطر السيف المصلت على الرقاب، فعلى الدعاة ان يقتدوا بسيد الخلق، ويتذكروا دائما قول يوسف عليه السلام: «قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

تأثر عتبة من موقف النبي صلى الله عليه وسلم؛ وكان هذا التأثير واضحًا لدرجة أن أصحابه أقسموا على ذلك التأثير قبل أن يخبرهم، فبعد أن كان العدو ينوي القضاء على الدعوة، اذا به يدعو لعكس ذلك، فيطلب من قريش أن تخلي بين محمد صلى الله عليه وسلم وما يريد.

استمع الصحابة لما حدث بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين عتبة، وكيف رفض حبيبهم صلى الله عليه وسلم كل عروضه المغرية، فكان ذلك درسًا تربويًا خالط أحشاءهم، تعلموا منه الثبات على المبدأ، والتمسك بالعقيدة، ووضع المغريات تحت أقدام الدعاة.

تعلم الصحابة من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الحلم ورحابة الصدر، فقد استمع صلى الله عليه وسلم الى ترهات عتبة بن ربيعة ونيله منه وقوله عنه: «ان في قريش ساحرًا»، و«ان في قريش كاهنًا»، «ما رأينا سخلة أشأم على قومك منك»، و«ان كان بك رَبِّيٌ من الجن» فقد أعرض عنه صلى الله عليه وسلم وأغض عن هذا السباب بحيث لا يصرفه ذلك دعوته وتبليغه اياها لسيد بني عبد شمس، فقد كانت كل كلمة تصدر من سيد الخلق صلى الله عليه وسلم مبدأ يحتذى، وكل تصرف دينًا يتبع، وكل اغضاء خلقا يتأسى به.

وذكرت بعض كتب السيرة بان قيادات مكة دخلوا في مفاوضات بعد ذلك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرضوا عليه اغراءات تلين أمامها القلوب البشرية ممن أرادوا الدنيا، وطمعوا في مغانمها الا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ موقفا حاسمًا في وجه الباطل دون مراوغة أو مداهنة، أو دخول في دهاء سياسي، أو محاولة وجود رابطة استعطاف أو استلطاف مع زعماء قريش، لأن قضية العقيدة تقوم على الوضوح والصراحة والبيان بعيدة عن المداهنة والتنازل؛ ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني اليكم رسولا، وأنزل علي كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فان تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وان تردوا علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

بهذا الموقف الايماني الثابت رجع كيدهم في نحورهم، وثبتت قضية من أخطر قضايا العقيدة الاسلامية وهي خلوص العقيدة من أي شائبة غريبة عنها سواء في جوهرها أو في الوسيلة الموصلة اليها.

لكم دينكم ولي دين

ولما رأى المشركون صلابة المسلمين واستعلاءهم بدينهم، ورفعة نفوسهم فوق كل باطل، ولما بدأت خطوط اليأس في نفوسهم من أن المسلمين يستحيل رجوعهم عن دينهم سلكوا مهزلة أخرى من مهازلهم الدالة على طيش أحلامهم، ورعونتهم الحمقاء، فأرسلوا الى النبي صلى الله عليه وسلم الأسود بن عبدالمطلب، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، فقالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فان كان الذي تعبد خيرًا مما نعبد، كنا قد أخذنا بحظنا منه، وان كان ما نعبد خيرًا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه، فأنزل الله فيهم: «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ».

ومثل هذه السورة آيات أخرى تشابهها في اعلان البراء من الكفر وأهله، مثل قوله تعالى: «وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ» وقوله تعالى «قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ».

وبينت سورة الكافرون أن طريق الحق واحد لا عوج فيه، ولا فجاج له، انه العبادة الخالصة لله وحده رب العالمين، فنزلت هذه السورة على الرسول صلى الله عليه وسلم للمفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة، ومنهج ومنهج، وتصور وتصور، وطريق وطريق، نعم نزلت نفيًا بعد نفي، وجزمًا بعد جزم، وتوكيدًا بعد توكيد، بأنه لا لقاء بين الحق والباطل، ولا اجتماع بين النور والظلام، فالاختلاف جوهري كامل يستحيل معه اللقاء على شيء في منتصف الطريق، والأمر لا يحتاج الى مداهنة أو مراوغة، نعم فالأمر هنا ليس مصلحة ذاتية، ولا رغبة عابرة، ولا سمًا في عسل، وليس الدين لله والوطن للجميع كما تزعم الجاهلية المعاصرة، ويدعي المنافقون والمستغربون الذين يتبعون الضالين والمغضوب عليهم، ولا كما يعتقد الملحدون أعداء الله سبحانه في كل مكان، كان الرد حاسمًا على زعماء قريش المشركين، ولا مساومة، ولا مشابهة، ولا حلول وسط، ولا ترضيات شخصية، فان الجاهلية جاهلية والاسلام اسلام، في كل زمان ومكان، والفارق بينهم بعيد كالفرق بين التبر والتراب، والسبيل الوحيد هو الخروج عن الجاهلية بجملتها الى الاسلام بجملته عبادة وحكما، والا فهي البراءة التامة والمفاصلة الكاملة والحسم الصريح بين الحق والباطل في كل زمان «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ».

وجاء وفد آخر بعد فشل الوفد السابق، يتكون من عبدالله بن أبي أمية، والوليد بن المغيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبدالله بن أبي قيس، والعاص بن عامر جاء ليقدم عرضا آخر للتنازل عن بعض ما في القرآن، فطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم آلهتهم، فأنزل الله لهم جوابًا حاسمًا، قال تعالى: «وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

يجب أن يكون المسلم شاعراً بقوة اليقين في شخصه وروعة الإيمان في نفسه

من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله

■ فضيلة القوة ترتكز في نفس المسلم على عقيدة التوحيد فتجعله يرفض الهوان في الأرض

■ الرجل لا يلتفت وراءه إلا بمقدار ما ينتفع به في حاضره ومستقبله أما الوقوف أمام الهزائم فليس من خلق المؤمن

المؤمن الحق، لا يكترث بأمر ليس له من دين الله سناد وهو، في جراته على العرف والتقاليد، سوف يلاقي العنت بيد انه لا ينبغي أن يخشى في الله لومة لائم، وعليه أن يمضي إلى غايته، لا تعنيه قسوة النقد، ولا جراحات الألسنة والباطل الذي يروج حينًا، ثم يثور الأقوياء عليه فيسقطون مكانته لا يبقى على كثرة الأشياع أمدا طويلا، ورب مخاصم اليوم من أجل باطل انخدع به، أمسى نصيرا لمن خاصمهم، مستريحا إلى ما علم منهم، مؤيدا لهم بعد شقاق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أسخط الله في رضا الناس سخط الله عليه وأسخط عليه من أرضاه في سخطه! ومن أرضى الله في سخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه من أسخطه في رضاه! حتى يزينه ويزين قوله وعمله في عينيه فليجمد المسلم على ما يوقن به وليستخف بما يلقاه من سخرية واستنكار عندما يشذ عن عرف الجهال، ويخط لنفسه نهجا، يلتمس به مثوبة الله عز وجل، ولئن كان الإيمان بالأوهام يُغر في البعض، بأن يسخر ويتهكم، إن الإيمان بالإسلام يجب أن يجعل أصحابه أقوياء راسخين . «وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا، إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا». أجل يجب أن يكون المسلم شاعرا بقوة اليقين في شخصه، وروعة الإيمان في نفسه، إن لم يستطع فرض ذلك على ما حوله بقي كالطود الأشم، لم تجرفه الغمار السائدة، ولم تطوه اللجج الصاخبة، وماذا عسى يفعل الناس لامرئ اعتز بإيمانه، واستشعر القوة لصلته بربه واستقامته في دينه؟ إنهم لو تألبوا عليه جميعا ما نالوا منه قليلا ولا كثيرا، عن ابن عباس قال: كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «يا غلام، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، فإن العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم يقدروا على ذلك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا على ذلك جفت الأقلام وطويت الصحف». والحق أن فضيلة القوة ترتكز في نفس المسلم على عقيدة التوحيد، كغيرها من الفضائل التي تجعله يرفض الهوان في الأرض، لأنه رفيع القدر بانتسابه إلى السماء، ولأنه يستطيع في نطاق إيمانه أن يكون أمة وحده، وفي فمه قول الله عز وجل: «قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين». ومن فضائل القوة التي يوجبها الإسلام أن تكون وثيق العزم، مجتمع النية على إدراك هدفك بالوسائل الصحيحة التي تقربك منه، باذلا قصارى جهدك في بلوغ مأربك، غير تارك للحظوظ أن تصنع لك شيئا، أو للأقدار أن تدير لك ما قصرت في تدبيره لنفسك !! فإن هناك أقواما يجعلون من الملجأ إليه ستارا يواري تقريطهم المعيب وتخاذلهم الذميم، وهذا التواء كرهه الإسلام. فعن عوف بن مالك قال: قضى رسول الله بين رجلين. فلما أدبرا قال المقضي عليه: حسبي الله ونعم الوكيل! فقال صلى الله عليه وسلم: إن الله يلوم على العجز! ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمرٌ فقل: حسبي الله ونعم الوكيل». أي أن المرء مكلف بتعبئة قواه كلها لمغالبة مشاكله حتى تنزاح من طريقه، فإن ذللها حتى استكانت له فقد أدى واجبه. وإن غلب على أمره أمامها بعد استفراغ جهده كان ركونه إلى الله عندئذ معاذا يعتصم به من غوائل الانكسار، فهو على الحالين قوي، بعمله أولا وبتوكله آخرا. إن الإسلام يكره لك أن تكون مترددا في أمورك، تحار في اختيار أصوبها وأسلمها، وتكثر الهواجس في رأسك فتخلق أمامك جوا من الريبة والتوجس، فلا تدري كيف تفعل. وتضعف قبضتك في الإمساك بما ينفعك فيفلت منك ثم يذهب سُدى.

إن هذا الاضطراب لا يليق بالمسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا. ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان». وعمل الشيطان هو تشييع الماضي بالتحبب والإعوال، هو ما يلقيه في النفس من أسى وقنوط على ما فات. إن الرجل لا يلتفت وراءه إلا بمقدار ما ينتفع به في حاضره ومستقبله، أما الوقوف مع هزائم الأمس، واستعادة أحزانها والتعثر في عقابيلها، وتكرار لو، وليت، فذلك ليس من خلق المسلم، بل لقد عده القرآن الكريم من مظاهر الحسرة التي تتلجلج في قلوب الكافرين: «يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير». وقد جاء في الحديث: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله».

والتوكل الذي يقوي الإنسان به ضرب من الثقة بالله، ينعش الإنسان عندما تكتنفه ظروف محرجة.

ويلتفت حوله فلا يرى عونا ولا أملا فالمكافح عدو قوي الشكيمة، شديد البأس، على ضعف العدة وقلة الناصر، يحس عندما يتوكل على الله أنه أوى إلى ركن شديد، ويستمد من هذا التوكل ثباتا ورباطا، ويظل يقاوم حتى تبرق بشائر النصر خلال جو مكفهر، وقد بين الله تبارك وتعالى أن هذا التوكل كان غذاء الكفاح الطويل الذي قاوم به النبيون وأتباعهم مظالم الطغاة وبغي المستبدين «وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون».

الآيات تؤكد أنه لا عمل بغير عقيدة ولا صلاح بغير إيمان

الكفر ظلمة منقطعة عن نور الله وضلال لا يرى فيه القلب أقرب علامات الهدى

■ القرآن يوجه الإنسان إلى النظر فيما حوله من مخلوقات وهي تسبح بحمد الله وتقواه

في مقابل النور المتجلي في السماوات والأرض، المتبلور في بيوت الله، المشرق في قلوب أهل الإيمان، يعرض السياق مجالا آخر، مجالا مظلما لا نور فيه، مخيفا لا أمن فيه ضائعا لا خير فيه ذلك هو مجال الكفر الذي يعيش فيه الكفار:

والتعبير يرسم لحال الكافرين ومآلهم مشهدين عجيبين، حافلين بالحركة والحياة في المشهد الأول يرسم أعمالهم كسراب في أرض مكشوفة مبسوطة، يلتمع التماعا كاذبا، فيتبعه صاحبه الظامئ، وهو يتوقع الري غافلا عما ينتظره هناك، وفجأة يتحرك المشهد حركة عنيفة فهذا السائر وراء السراب، الظامئ الذي يتوقع الشراب، الغافل عما ينتظره هناك يصل فلا يجد ماء يرويه، إنما يجد المفاجأة المذهلة التي لم تخطر له ببال، المرعبة التي تقطع الأوصال، وتورث الخبال: (ووجد الله عنده)! الله الذي كفر به وجحده، وخاصمه وعاداه وجده هنالك ينتظره ولو وجد في هذه المفاجأة خصما له من بني البشر لروعه، وهو ذاهل غافل على غير استعداد فكيف وهو يجد الله القوي المنتقم الجبار؟

«فوفاه حسابه» هكذا في سرعة عاجلة تتناسق مع البغتة والفجاءة، (والله سريع الحساب) تعقيب يتناسق مع المشهد الخاطف المرتاع!

وفي المشهد الثاني تطبق الظلمة بعد الالتماع الكاذب، ويتمثل الهول في ظلمات البحر اللجي موج من فوقه موج من فوقه سحاب وتتراكم الظلمات بعضها فوق بعض، حتى ليخرج يده أمام بصره فلا يراها لشدة الرعب والظلام!

إنه الكفر ظلمة منقطعة عن نور الله الفائض في الكون وضلال لا يرى فيه القلب أقرب علامات الهدى ومخافة لا أمن فيها ولا قرار..(ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور)..ونور الله هدى في القلب، وتفتح في البصيرة، واتصال في الفطرة بنواميس الله في السماوات والأرض، والتقاء بها على الله نور السماوات والأرض فمن لم يتصل بهذا النور فهو في ظلمة لا انكشاف لها، وفي مخالفة لا أمن فيها، وفي ضلال لا رجعة منه ونهاية العمل سراب ضائع يقود إلى الهلاك والعذاب، لأنه لا عمل بغير عقيدة، ولا صلاح بغير إيمان إن هدى الله هو الهدى وإن نور الله هو النور.

ذلك مشهد الكفر والضلال والظلام في عالم الناس، يتبعه مشهد الإيمان والهدى والنور في الكون الفسيح، مشهد يتمثل فيه الوجود كله، بمن فيه وما فيه، شاخصا يسبح لله: إنسه وجنه، أملاكه وأفلاكه، أحياؤه وجماده..وإذا الوجود كله تتجاوب بالتسبيح أرجاؤه، في مشهد يرتعش له الوجدان حين يتملاه: «ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض، والطير صافات، كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون».

إن الإنسان ليس مفردا في هذا الكون الفسيح، فإن من حوله، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته، وحيثما امتد به النظر أو طاف به الخيال..إخوان له من خلق الله، لهم طبائع شتى، وصور شتى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (41) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (42) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ (43) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الأَبْصَارِ (44)».

واشكال شتى ولكنهم بعد ذلك كله يلتقون في الله، ويتوجهون إليه، ويسبحون بحمده: (والله عليم بما يفعلون).

والقرآن يوجه الإنسان إلى النظر فيما حوله من صنع الله، وإلى من حوله من خلق الله في السماوات والأرض، وهم يسبحون بحمده وتقواه، ويوجه بصره وقلبه خاصة إلى مشهد في كل يوم يراه، فلا يثير انتباهه ولا يحرك قلبه لطول ما يراه. ذلك مشهد الطير صافات أرجلها وهي طائرة في الفضاء تسبح بحمد الله: (كل قد علم صلاته وتسبيحه)، والإنسان وحده هو الذي يغفل عن تسبيح ربه، وهو أجدر خلق الله بالإيمان والتسبيح والصلاة.

وإن الكون ليبدو في هذا المشهد الخاشع متجها كله إلى خالقه، مسبحا بحمده، قائما بصلاته، وإنه لكذلك في فطرته، وفي طاعته لمشيئة خالقه الممثلة في نواميسه. وإن الإنسان ليدرك – حين يشف – هذا المشهد ممثلا في حسه كأنه يراه، وإنه ليسمع دقات هذا الكون وإيقاعاته تسابيح لله، وإنه ليشارك كل كائن في هذا الوجود صلاته ونجواه كذلك كان محمد بن عبد الله – صلاة الله وسلامه عليه – إذا مشى سمع تسبيح الحصى تحت قدميه وكذلك كان داود – عليه السلام – يرتل مزاميره فتؤوب الجبال معه والطير.

(ولله ملك السماوات والأرض، وإلى الله المصير).

فلا اتجاه إلا إليه، ولا ملجأ من دونه، ولا مفر من لقائه، ولا عاصم من عقابه، وإلى الله المصير.